

فرن أم علي

حمادة حامد محمود نور الدين

في أقصى نجعٍ من نجوع سوهاج، حيث ينتهي الطريق المسفلت ويبدأ التراب، كان فرنُ أمّ عليّ يُشعل كلّ فجرٍ قبل أذان الصبح بساعة. فرنٌ من الطين الأسود، له فمٌ واسع كفمّ جدٍّ يبتسم، وبجانبه مصطبةٌ طويلة تجلس عليها النساء ينتظرن دورهنّ لخبز العجين الذي حملنه في الأطباق على رؤوسهنّ.

كانت أمّ عليّ في السبعين، قصيرة القامة، بعينين لوزيّتين تسخر منهما السنون ولا تتغلب عليهما. لا أحد يتذكّر متى بدأت تخبز، ولا من علّمها. تقول هي إنّ الفرن هو الذي علّمها، وإنّ الخبز لا يُصنع باليد، بل بالنيّة.

كان لأهل النجع عادةٌ يتوارثونها: حين تضع المرأة عجينها في الفرن، تهمس فوقه بأمنيةٍ أو دعاءٍ أو اسمٍ تحبّه. ويقولون إنّ الخبز يمتصّ الكلمات مع النار، فتصير جزءاً منه، فيأكلها من يأكل الرغيف، فتتحقّق ببطءٍ في حياته. ولم يكن أحدٌ يجادل في ذلك، فالجميع يعرف أنّ خبز أمّ عليّ أطيب من كلّ خبزٍ في المراكز.

في خريفٍ جاف، وصلت إلى النجع امرأةٌ غريبة مع ابنتها الصغيرة، تبدوان متعبتين من سفرٍ طويل. جلستا على المصطبة، ولم تحملا

عجيناً. سألتهما أمّ عليّ عن حاجتهما، فقالت المرأة بصوتٍ خافت: «ليس معنا ما نخبزه. أريد فقط أن أجلس قرب النار. ابنتي تبرد.»

ناولتهما أمّ عليّ رغيفين ساخنين من دون كلمة، ووضعت كوب شايٍ في يد الصغيرة، ولم تسأل شيئاً آخر. وفي الأيام التالية بقيت الغريبتان في النجع. عرفوا أنّ اسم المرأة «نعمة»، وأنّها هربت من زواجٍ مؤلم، وأنّها تحمل في حقيبتها ثوب ابنتها الوحيد وخاتماً لا يساوي شيئاً.

كانت نعمة تساعد في الفرن: تنقل العيش، وتنظّف الرماد، وتراقب النار. وكانت تنظر إلى أمّ عليّ وهي تهمس فوق العجين، ولا تعرف ماذا تقول. وفي صباحٍ بارد، جرأت أخيراً وسألت: «ماذا تقولين للخبز يا أمّ علي؟»

ابتسمت العجوز وقالت: «ما في قلبي. فمن أين لي بشيءٍ آخر؟»

«وهل يستجيب؟»

«أحياناً. وأحياناً يردّ بطريقته هو. لكنّه لا يخون الكلمة أبداً.»

ثم حدّثتها عن امرأةٍ همست يوماً فوق العجين «أريد أن يعود ابني من الغربة»، فعاد بعد ثلاث سنين وقد فقد ساقه، وقال إنه لم يكن ليعود لو لم يفقدها. وعن رجلٍ تمنّى الغنى فجاءه فيضانٌ جرف أرضه، ثم اكتشف تحت الطين كنزاً من الطمي الخصب جعل محصوله خمسة أضعاف. «الخبز لا يعطي ما نطلب،» قالت أمّ علي، «بل ما نحتاج.» وسكتت قليلاً، ثم أضافت: «وهذا أصعب على القلب من الرفض.»

في تلك الليلة، حين نامت الصغيرة، جلست نعمة وحدها أمام الفرن الدافئ، ووضعت كفّها على الطين الأسود. همست دون أن تدري: «أريد أن أبدأ من جديد.» لم يكن عندها عجين، لكنّها شعرت بشيءٍ دافئ يخرج من الطين إلى يدها، كنبضٍ خفيف.

وفي الصباح، وقبل أن تُشعل أمّ عليّ النار، وجدت في الفرن رغيفاً واحداً مستديراً ذهبيّاً، لم يخبزه أحد. وحين كسرته، فاحت منه رائحةٌ لا تشبه رائحة أيّ خبزٍ في الدنيا: رائحة الطفولة. قسمته بين نعمة وابنتها، وقالت: «كلاه.»

أكلتا الرغيف بصمت. ورأت الصغيرة، ولأوّل مرّة منذ شهور، تبتسم. وقالت نعمة لأمّ علي بعينين دامعتين: «شعرتُ كأنّ أمّي تحتضنني.» فأومأت العجوز: «الفرن يعرف. هو يحبّ من يبدأ من جديد.»

في الشتاء، مرضت أمّ عليّ مرضاً لا يشبه الأمراض التي مرّت بها. شحب وجهها، وضعفت يداها، ولم تعد تستطيع حمل المجرفة الطويلة. جمعت نساء النجع وقالت: «يا بنات، أريد أن أترك الفرن لواحدةٍ منكنّ.»

ساد الصمت. كلّ امرأةٍ نظرت إلى جارتها. لم تكن إحداهن تجرؤ. هذا ليس عملاً، هذا عهد. قالت أمّ علي: «لا أريد من تخبز جيّداً. أريد من تُحسن الإصغاء إلى ما يقوله الناس للعجين.»

كان في عينيها شيءٌ يشبه الخوف وشيءٌ يشبه الوداع. وأضافت: «النار تعرف من يحبّها ومن يستغلّها. والفرن ليس ملكاً لأحد. هو أمانة كما كانت لي، وكما كانت لمن قبلي. ومن يحمله لا يطلب أجراً غير رائحة الخبز في الفجر.»

مدّت يدها نحو نعمة، التي كانت واقفةً عند الباب خجولة. قالت: «تعالي يا بنت.»

«أنا غريبة يا أمّ علي!»

«الغريب هو من يحمل الأرض في قلبه ولا يدّعي ملكيتها. تعالي.»

أخذت نعمة المجرفة، وهي ترتجف. نظرت إلى فم الفرن المفتوح، وسمعت، أو خيّل إليها، همساً قديماً يخرج منه: «لا تخافي. نحن معك.» ثم أشعلت النار.

تلك الليلة لم تنم نعمة. بقيت تتحسّس الطين كمن يقرأ لغةً جديدة، وتصغي. ومع الصباح عرفت أنّ الفرن لا يتكلّم بالكلمات، بل بالحرارة: حرارةٌ حنون حين تكون المرأة التي تقف أمامه حزينة، وحرارةٌ حادّة حين يضمر أحدهم في قلبه حقداً. ولم تُخبر بذلك أحداً، لكنّها صارت تبتسم لكلّ من تراه، لأنّها تعلم أنّ الفرن سيخبرها بالباقي.

ماتت أمّ عليّ في الربيع، في ليلةٍ هادئة، بعد أن أكلت رغيفاً صغيراً وقالت: «الخبز أجمل ما صنعته الدنيا.» ودفنوها قرب مقبرة النجع،

تحت شجرة سنط. وفي الفجر التالي، أشعلت نعمة الفرن كالعادة، وجلست النساء على المصطبة، ولم يتكلّم أحدٌ كثيراً.

وضعت كلّ امرأةٍ عجينها في الفرن، وهمست فوقه بأمنيتها، وفوق ذلك، همسةً صغيرةً جديدة: «يا أمّ علي، ارحميها.» وحين أُخرج الخبز، كان في كلّ رغيفٍ نقشٌ خفيف كنجمةٍ صغيرة، لم يكن موجوداً من قبل.

ما زال الفرن يُشعل كلّ فجر في ذلك النجع. وما زالت الغريبة الأولى تديره، وصارت أمّاً لعشرين طفلاً ليسوا من صلبها. وإذا مرّ بالنجع غريبٌ حزين، وجد عند الفرن رغيفاً دافئاً ينتظره على المصطبة، من دون سؤال، كأنّ أحداً علم بقدومه قبل أن يصل.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app